**الماء في الشعر الجاهلي**

**بقلم سُوف عبيد**

بين كلمة (ماء) وكلمة (أمّ) صلة القربى فإذا كانت الأمّ مصدر الإنسان فإن الماء أصل الحياة وهما زاد اللغة العربية ثراء في معجمها بالنسبة لهذه الكلمة أنها نشأت وانتشرت وسادت في أصقاع هي من أشد الأقاليم حاجة إلى الماء بل إن الحضارة الإنسانية ظهرت حول الينابيع والانهار الدافقة التي على ضفافها عرف الإنسان الفلاحة والثقافة فانبثقت الحضارات الأولى بين دجلة والفرات والنيل حتى عمّت العالم عبر العصور وعبر الأودية والسواحل أيضا.

حفلت اللغة العربية اذن بالماء ووجدت له كلمات لا تحصى ولا تعدّ بحسب خروجه وسيلانه وبحسب نوعه واستعماله وبحسب وجوده ومشتقاته حيث أورد الثعالبي في كتابه فقه اللغة أن الماء إذا كان من السحاب فقد سحّ وإذا كان من الينبوع نبع ومن الحجر انبجس ومن النهر فاض ومن السقف وكف ومن القرية سرب ومن الاناء رشح ومن العين انسكب واذا كان الماء دائما لا ينقطع ولا ينزح في عين أو بئر فهو عدّ فإذا حرّك منه جانب لم يضطرب جانب آخر فهو كرّ فإذا كان كثيرا عذبا فهو غدق، فإذا كان مغرقا فهو غمرا فإذا كان تحت الأرض فهو غور، فإذا كان جاريا فهو غيل، فإذا كان سبل المنال والاستعمال فهو سيح، فإذا كان ظاهرا جاريا فهو معين، فإذا كان جاريا بين الأشجار فهو غلل، فإذا كان إلى العكبين فهو ضحضاح فإذا كان قريب للقعر فهو ضحل فإذا كان قليلا فهو ضهل فإذا كان خالصا يخالطه شيء فهو قراج فإذا خاضته الدواب فهو طرق، فإذا تغير فهو سجس فإذا تغيّر من حيث الرائحة فهو آجن، فإذا كان حارا فهو سخن، فإذا اشتدت حرارته فهو حميم ، فإذا كان بين البارد والحار فهو فاتر، فإذا كان مرّا فهو قعاع فإذا كان شديد الملوحة فهو حراق ، فإذا كان مرّا ومالحا فهو اجاج فإذا كان يشرب فهو شريب فإذا كان لا يشرب إلا على ضرورة فهو شروب والماء العذب فرات.

فإذا زادت عذوبته فهو نقاخ فإذا جمع الصفاء والعذوبة فهو زلال.

وقد فصلت اللغة القول تفصيلا في ذكر الأنهار والأودية والجداول والآبار والأحواض والأمطار بحسب الأوصاف والكمية والوقت والمكان والصوت والسيلان كما أنها صنفت الماء تصانيف بحسب المناسبة والشراب والمصدر الطعم.

بل أن اللغة اشتقت من مفردات الماء كلمات تدلّ بها على أوصاف لمسميات أخرى كالفرس مثلا، فإذا كان الفرس سريع الجري فهو غمر وهو الماء الكثير، وهو جموم أي مستعد دائما للعدو ومثل البئر الجموم أي التي لا ينزح ماؤها، فإذا كان الفرس متتابع الخطو فهو مسح كالمطر المتتابع فإذا كان لا ينقطع جريه فهو بحر ومن دلالات الماء كذلك كلمة العين التي لا تفضي إلى عديد المعاني بحسب سياقها في الكلام فهي منبع الماء وجارحة البصر وهي الذات والنفس في قولهم عين الشخص وهي في الابرة موضع الخيط ومن

معاني الكلمة قولهم مال عين أي عقار وقولهم فلان عين عن جمع أعيان وقولهم كان عينا أي جاسوسا وقولهم عين الشجرة أي منطلق الغصن فيها، أما أهل الصرف فقد جعلوا للفعل عينا أيضا.

نحن إذا تتبعنا سيرة الشعر العربي في مختلف عصوره الزاهرة وجدنا عيون النصوص فيه ترشح بالماء تصريحا وتلميحا حتى لكان الشعر العربي إنما كان وأينع وازدهر عندما احتفل بالماء ومعانيه ولكان الماء هو حياة الأدب أيضا فسبحانه الذي قال وجعلنا من الماء كل شيء حي.

من ضمن المعلقات التي تعتبر من أهم عيون الشعر العربي معلقة امرئ القيس حيث تحدث فيها عن يوم دارة جلجل إذ أورت كتب الأدب القديمة أن امرئ القيس كان عاشقا لابنة عمة عنيزة وأنه طلبها زمانا فلم يصل إليها حتى كان يوم الغدير وهو يوم دارة جلجل الذي باغت فيه النسوة ومعهن عنيزة وهن يغتسلن في الغدير فأتى امرئ القيس وأخذ ثيابهن فجمعها وقعد عليها والله لا أعطي جارية منكن ثوبها ولو قعدت في الغدير يومها حتى تخرج متجردة فتأخذ ثوبها. فأبين ذلك حتى تعالى النهار وخشين أن يتخلفن عن العودة فخرجن جميعا غير عنيزة التي أبت لكنها أذعنت لإرادته في آخر الأمر فما كان منه عندئذ إلا نحو ناقته اكراما لهنّ وطلبا للهو والمتعة ولقد قال لله درّه في ذلك اليوم – يوم الغدير

**ألا رب يوم من البيض صالح**

**ولا سيما يوم بدارة جلجل**

**ويوم عقرت للعذارى مطيتي**

**فيا عجبا من رحلها المتحمل**

**فظل العذارى يرتمين بلحمها**

**وشحم كهدّاب الدمقس المفتّل**

وامرئ القيس يذكر الماء في معلقته عند قوله أيضا.

**وليل كموج البحر أرخى سدوله**

**علىّ بأنــواع الهمــوم ليبتلــي**

وهو عندما يصف فرسه يستعمل الماء في صورة

**مكرّ صفر مقبل مدبر معا**

**كجلمود صخر حطه السيل من عل**

**مسح إذا ما السابحات على الونى**

**اثــرن الغبــــار بالكــديد المركّــل**

فالماء لدى امرئ القيس كان إطارا لبعض أحداث معلقته بالإضافة إلى جعله من العناصر التصويرية في الوصف عند فرسه خاصة.

أما معلقة عنترة بن شداد فهي أيضا ذكرت الماء في قوله :

**لا تسقني ماء الحياة بدلّة**

**بل فاسقني بالعزّ كأس الحنظل**

**ماء الحياة بذلّة كجهنّم**

**وجهنّم بالعزّ أطيب منزل**

فاقتران الماء والحياة كان يمثل التلازم بينهما فكلما وجد الماء وجدت الحياة ولا حياة بدون ماء ولكن سياق الماء في هذه القصيدة يفيد بالإضافة إلى ما سبق رونق الحياة ومسراتها وذلك من شاعرية المعنى في القصيدة.

ويذكر عنترة الماء عند وصفه لخوضه المعركة على متن جواده قائلا :

**لما رأيت القوم أقبل جمعهم**

**يتذامرون كررت غير مذمّم**

**يدعون عنتر والرماح كأنها**

**اشطان بئر في لبنان الأدهم**

فالحبل والبئر من سياقات الماء وكذلك الشراب والزجاجة في قوله أيضا.

**ولقد شربت من المدامة بعدما**

**ركد الهواجر بالمشوف المعلم**

**بزجاجة صفراء ذات أسرّة**

**قرنت بأزهر في الشمال مقدّم**

**فإذا شربت فإنني مستهلك**

**مالي وعرضي وافر لم يكلم !**

تلك هي بعض دلالات الماء في الشعر الجاهلي.